في ذكرى أربعينية المفكر العربي الراحل محمد عابد الجابري(*)

خير الدين حسيب

مدير عام مركز دراسات الوحدة العربية.

الأخوات والإخوة

كم يَشُقُّ عليّ ويُثقِلُ على صدري أن أجد نفسي في لحظةٍ مثلِ هذه، أتحدَّث عن فقيدٍ كبيرٍ رَحَل اسمُهُ محمد عابد الجابري، إذْ إنّي، في مثل هذه الحال، لا أتحدَّثُ عن محْضِ فقيدٍ عزيزٍ مُمَيَّز جَمَعَتْني به الصداقةُ الحارَّةُ والالتزامُ القوميُّ والعلميُّ المشترَك، وإنما أتحدَّثُ عن نصفيّ الآخَرِ الذي فَقَدْتُه. فالذي كان بيني وبين الراحل الكبير أكبرَ من حَبْل الصداقةِ، وأمتنَ من رابط الأخوَّة. وإذْ أعزّي الشعبَ المغربيّ والأمّةَ العربية والمجتمعَ الثقافيَّ العربيَّ بمناسبة هذا الفقدان، أشْعُر أنه لا عزاء لي شخصيَّاً إلا أن تصبح رسالةُ الجابري في الحياة رسالةَ أبناء العروبة جميعاً، فتنتصرَ قيمُ العقلِ والاجتهاد والتسامح والديمقراطية ـ وقد ناضل من أجلها الفقيدُ طيلةَ نصفِ قرن ـ على التحجُّر والانغلاق والتعصُّب والاستبداد.

عرفتُ الفقيدَ الكبير منذ ثلاثين عاماً أو يزيد، واتَّصَلَتِ العلاقةُ بيننا منذ ذلك الحين فما انقطعت. التقيْنا في عشرات الندوات والمؤتمرات العلمية التي عقدها مركز دراسات الوحدة العربية وغيرُهُ من المراكز والمؤسسات الفكرية العربية، مثلما جمعتنا جلساتُ طوال في بيتي وبيته. أما اتصالاتنا الهاتفية والإلكترونية ـ وقبلها البريدية ـ فما انقطعت طيلة العقود الثلاثة الماضية. وبسبب تفاقُم حالته الصحية، في السنوات الأخيرة، لم نتمكّن من استقباله ـ كالعادة ـ في بيروت. لكني حَرِصْتُ في زياراتي للمغرب على رؤيته

(*) أُلقيت هذه الكلمة في حفل أربعينية الفقيد في مسرح محمد الخامس بالرباط يوم الثلاثاء ٨ حزيران/ يونيو ٢٠١٠.

والاطمئنان عليه. وفي آخر زيارة لي للمغرب في العام الماضي، زرتُه في بيته بِمَعِيَّة الأخ د. عبد الإله بلقزيز؛ وكان اسم الأخ العزيز الأستاذ عبد الرحمن اليوسفي حاضراً بيننا في شطْرٍ من ذلك الحديث قبل أن يرنَّ هاتف د. الجابري فنَعْلَمَ أن المتحدّث إنما كان الأستاذ اليوسفي من فرنسا.

⁂

عرفتُ في الفقيد الكبير مثالَ الباحث المعتكف في محراب العلم، الذي لا تأخُذُهُ عن مشروعه الفكريّ قضيةٌ شخصية وإن عَظُمَت واشتدَّتْ عليه وطأتُها. كان يغالبُ وضْعَهُ الصحيّ ويقاوم المرض كي يستكمل مشروعه الذي بدأهُ قبل ثلث قرن. بالعزيمة والإصرار على جَبْه التحدّي عضَّ على آلام البَدَن، فأكمل مشروعه في **نقد العقل العربي**، وبالعزيمة والإصرار نفسهما أكمل مشروعه في **تفسير القرآن الكريم**. وكلّما أرهقَهُ المرض وأعْجَزَهُ عن الحَرَاكِ والسَّفر، قاومهُ بالقراءةِ والكتابة. كان مع التحدّي أشبهَ ما يكون بشخصية أسطوريةٍ قُدَّتْ من فولاذ؛ وكان في ذلك مضْرِبَ مَثَلٍ عند الجميع ومثالاً به يُحْتَذَى ويُقْتَدَى.

عرفتُ في الفقيد نموذجاً معياريّاً للمثقف الملتزم الذي ما فَصَل في حياته بين الفكر والممارسة: منذ انخرط في الحركة الوطنية و«حزب الاستقلال» شابّاً مناضلاً من أجل استقلال الوطن في النصف الأوّل من خمسينيات القرن الماضي؛ ثم منذ أصبح مناضلاً مسؤولاً في «الاتحاد الوطني للقوات الشعبية» وسكرتيرَ تحريرِ صحيفته المركزية (= جريدة **التحرير**)، فعضواً في المكتب السياسي لـ «الاتحاد الاشتراكي» منذ العام ١٩٧٥، ومناضلاً فيه من أجل الديمقراطية والاشتراكية، إلى أن صار رَمْزاً عربيّاً للفكر الملتزم بالنهضةِ والوحدةِ والتقدم. ولقد ظلّ في عزِّ عنفوانه العلميّ وتألُّقِهِ الأكاديمي حريصاً على ذلك الالتزامِ الوطنيِّ والقوميِّ والديمقراطيّ لا يَبْرَحُهُ أو يُعَلِّقُهُ باسم المعرفة والحياد العلميّ. فكان في ذلك رائداً ومثالاً لغيره من المفكّرين والمثقفين في المغرب وفي الوطن العربي.

ثم إني عرفتُ فيه الرجُلَ الرفيعَ الأخلاق: المتواضعَ من دون افتعال، والمتحدّثَ عفيفَ اللسان، المُؤمنَ بما يَعْمَل والعاملَ بما يُؤْمِن. كانت أخلاقُهُ أخلاقَ الكبار: يترفَّع عن الردّ حين يُسَاءُ إليه، ويَصْفَحُ صادقاً عن المُسِيء؛ يُحْسِن الظنَّ بالجميع وينسى الإذاية حين يكونُ للنسيانِ الأثرُ الإيجابيَّ؛ يحترم صاحبَ الرأي وإنْ خالفَهُ ولا يجد غَضَاضةً في مناقشته؛ يُنْصِت إلى معارضيه مثلما يُنْصِت إلى أصدقائِه ومؤيّديه. لا تكاد تَعْثُرُ في سلوكه على شبهةِ استعلاءٍ وكِبْرٍ؛ ولا في صدْرِهِ على أحقادٍ وضغائن. وَفِيٌّ للأصدقاء أشدَّ ما يكون الوفاء، حافظٌ للأمانة كَمَنْ يَحْرُسُ سراً من الإفشاء.

مفكّراً ومناضلاً وإنساناً رفيعَ السَّجَايا كانْ. وهكذا كانت مَنَاقِبُهُ في عيون كلّ مَنْ عرفوهُ واتّصلوا به: رفاقاً وأصدقاءَ وزملاءَ وطلبةً وقُرّاء. قد يختلف مَعَهُ من يختلف، لكنّ أحداً من المختلفين لا يملك أن يَجْحَدَ ما في الرجلِ من مزايا قلّمَا اجتمعتْ في مفكّرٍ في

هذا الزمان. وحين رَحَلَ عنّا قبل نيّفٍ وشهر، رَثَاهُ مَنْ خالفوهُ بالمفرداتِ عينِها التي بها رَثَاهُ من شاطروهُ الرأيَ والموقفَ وأيَّدوه. فكأنما كان على الفقيد أن يَرْحَل كي نكتشف مرّةً أخرى ـ بعدَ نسيانٍ ـ أن الكبارَ وحْدَهُم يملكون أن يُوقِظُوا فينَا أخلاقَ الاعترافِ وفضيلةَ الإجماعِ على الحقّ وإنْ تفرَّقَتْ بنا السُّبُل.

❊ ❊ ❊

إن كان لمركز دراسات الوحدة العربية أن يَفْخَر بشيء ـ وله الكثيرُ ممَا يَفْخَر به في زَعْمي ـ فإن ممَّا يَفْخَر به أنه كان مَقْصِدَ الراحلِ الكبير لنشر أعماله الفكرية كافة. لقد حَرِصَتُ شخصياً على أن يتعامل المركز مع أعمال المرحوم تعامُلاً خاصاً واستثنائياً اعترافاً مني ـ ومن المركز ـ بمكانةِ صاحبها في تاريخنا الفكريّ العربي المعاصر. وكان من ذلك التعامل أنها وحدَها تقريباً التي نشرت من دون أن تُعْرَض على التحكيم العلمي على ما تقتضيه قواعدُ النشر في المركز. وإذا كان المركزُ قد عرَّفَ بأعمال الدكتور الجابري على أوسع نطاقٍ عربيّ ممكن، وإذا كان قد أتْبَعَ ذلك بالتعريف به على نطاق عالمي من خلال الشروع في ترجمة بعض كتبه إلى الإنكليزية والتعاقد مع إحدى أكبر دور النشر البريطانية لنشرها (وقد نُشِر منها ـ حتى الآن ـ كتابٌ والثاني قيْد الطبع)، فإن أعمال الراحل الكبير عرَّفتْ ـ من جهتها ـ بمركز دراسات الوحدة العربية في بيئات ثقافية وأكاديمية أخرى لم تَكُنِ الصلةُ بها شديدةٌ قبل نشر أعماله في المركز. وإذا كان الانطباعُ الخاطئُ قد تولَّدَ لدى البعض عن الراحل الكبير كمدافعٍ عن فكرة القطيعة المعرفية بين المغرب (البرهاني) والمشرق (العرفاني)، فإن احتضانَ المركز لتراث هذا المفكّر الكبير بدَّد مثل ذلك الانطباع وكرَّس فكرةً أخرى مفادها أن الجابري والمركز معاً هُمَا جسْر التواصل الفعلي بين المغرب والمشرق.

الأخوات والإخوة

أعِدُكُم، في المناسبة الحزينة ومِنْ على هذا المنبر، بأن نظلّ ـ في مركز دراسات الوحدة العربية ـ أوفياء لفكر فقيدنا الكبير وتراثه التنويري النهضوي، وأن نتعهّد هذا الميراث بالرعاية والنشر والتعريف، بل دعوني أُعْلِن أمامكم أن مركز دراسات الوحدة العربية قرّر تكريم د. الجابري من خلال سلسلة من المبادرات الفكرية، حَسْبيَ أن أذْكُرَ منها ـ في هذا المعرض ـ ثلاث مبادرات:

أولاها، عقْدُ **ندوةٍ فكرية** في بيروت، نهاية العام الحالي، تتناول فكرَ الراحلِ الكبيرِ ومشروعَه العلمي بالدراسة والمناقشة والتقييم. وستشارك فيها جمهرةٌ من المفكّرين والباحثين العرب من ذوي الاختصاص في ميدان الدراسات الإسلامية ودراسات الفكر العربي والفكر النهضوي. وقد أُعِدَّ مخطّط الندوة سلفاً، وسيُعْرَض على المناقشة في

لجنةٍ علمية خاصة يشكّلها المركز لهذا الغرض لإقراره بعد إدخال التعديلات اللازمة عليه قبل تكليف الباحثين بإعداد البحوث الخاصة بالندوة. كما أن وقائع هذه الندوة ـ بحوثاً وتعقيباتٍ ومناقشات ـ ستُنْشر في كتاب، على جاري عادة المركز في كلّ ندوةٍ علمية يعقدها.

و**ثانيتها**، إحداث جائزة فكرية عربية تحمل اسم المفكر الراحل. وتُمْنَح الجائزة ـ في مرحلةٍ أولى ـ خلال كلّ عاميْن لمفكرٍ عربيّ قدّم مساهماتٍ فكرية في المجالات والقضايا النظرية والفكرية التي تخدم تقدُّم الفكر العربي وقضايا النهضة، التي كرَّس لها الراحلُ الكبير جَهْدَهُ وحياتَه. وسيكون للجائزة نظامٌ أساسيٌّ خاص، شأن سائر الجوائز التي أحدثها مركز دراسات الوحدة العربية، ويشرف عليها إدارةً وتمويلاً مثل «جائزة جمال عبد الناصر» و«جائزة عبد الله الطريقي». كما ستكون لها لجنة تحكيم علمي خاصة. أما قيمة الجائزة، فلا تقلّ عن خمسة وعشرين ألف دولار.

و**ثالثتها** إحداث كرسي للفكر العربي ووقفية باسم المفكّر الراحل د. محمد عابد الجابري بمبلغ مليون دولار تُحَوَّل مداخيلها إلى دعم الجائزة وإلى تغطية نفقات كرسي الفكر العربي.

الأخوات والإخوة،

إن الصديق الراحل من طينة الذين لا يرحلون من الرجال، لأن ما تركوهُ من ميراثٍ عظيم يظلّ حياً في العقول والنفوس والإرادات: يُلْهِمُ الأمةَ وأجيالَها الجديدة ويزوّدها بالرؤية الواضحة في الظّلمة الظلماء. ومع أني حزين لِفَقْدِ هذا الصديقِ الكبير، فإنَّ عزائيَ الوحيد أنه لم يَزْرَع بَذْرةً فحسب، وإنما أثْمَرَ حقلاً، وأنْجَب مدرسةً، وقدَّمَ مثالاً وقُدوَةً، وأدْخَل الفكرَ العربيَّ إلى المدار الكونيّ. لِيَرْحَمِ اللهُ فقيدَنَا الكبير، ولْيُجْزِهِ أحسنَ الجزاءَ عمَّا قدَّم للفكر وللأمةِ وللإنسانيةِ جَمْعاء من جزيل العطاء، والسلام عليكم □